جامعة الملك سعود
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
مجلة الآداب
ردمد (ورقي):٣٦١٢-١٠١٨
ردمد (النشر الإلكتروني): ٨٣٣٩-١٦٥٨

King Saud University
College of Humanities and Social Sciences
Journal of Arts
ISSN (Paper):1018-3612
ISSN (Electronic):1658-8339

مجلة الآداب، مج (٣٧)، ع (١)، ص ص ٨٧-١٠٨، جامعة الملك سعود، الرياض (٢٠٢٤م/ ١٤٤٦هـ)
Journal of Arts, Vol. 37 (1), pp 87-108, © King Saud University, Riyadh (2024 /1446H.)

نوستالجيا القصائد الأخيرة: مقاربة موضوعية نفسية

أحمد بن ماطر اليتيمي

أستاذ الأدب والنقد المشارك، قسم الأدب والبلاغة، كلية اللغة العربية والدراسات الإنسانية، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السعودية.

(قدم للنشر في ٢/ ٣/ ١٤٤٦هـ، وقبل للنشر في ١٤/ ٤/ ١٤٤٦هـ)

https:/doi.org/10.33948/ARTS-KSU-37-1-4

الكلمات المفتاحية: نوستالجيا، الحنين، مراثي الذات، رثاء النفس.

ملخص البحث: تهتم الدراسة بالوقوف على مظاهر النوستالجيا في القصائد الأخيرة التي كُتبت في مواجهة الموت أو انتظاره، وبيان أثر الحنين الذي يختلج نفوس الشعراء في لحظاتهم الأخيرة، وبواعث العودة إلى الماضي باعتباره ملاذًا تأوي إليه النفس هربًا من الواقع، أو بحثًا عن الاستقرار النفسي والطمأنينة.

وتنتظم الدراسة في مهاد نظري يبيِّن المفاهيم العامة (النوستالجيا، والقصائد الأخيرة)، ويستعرض المحور الأول نوستالجيا المكان وتوظيف الشعراء لذكريات الوطن والديار، ويأتي المحور الثاني على نوستالجيا الزمن والعودة إلى عهد الطفولة والأيام القديمة، فيما يتضمن المحور الثالث نوستالجيا الأشخاص واستدعاء صور الأهل والأحبة في مواقف الشعراء الأخيرة، أما المحور الرابع فيقف عند نوستالجيا المجد والبطولة التي لازمت الشعراء في تجاربهم الشعرية الأخيرة، تتبعها خاتمة لأبرز النتائج والتوصيات، مذيلة بقائمة للمصادر والمراجع، وتتخذ الدراسة من المقاربة النفسية والموضوعية وسيلة لتجلية مظاهر النوستالجيا، وأثرها في النص الشعري.

The Last Poems Nostalgia: A Psychological and Objective Approach

Ahmed Mater Alyatimi

Associate Professor of Literature and Criticism, Department of Literature and Rhetoric, Faculty of Arabic Language and Humanities, Islamic University of Madinah, Saudi Arabia.

(Received: 2/ 3/1446 H, Accepted for publication 14/ 4/1446 H)

https:/doi.org/10.33948/ARTS-KSU-37-1-4

Keywords: Nostalgia, yearning, Self-Elegies, Self-Mourning.

Abstract. This study focuses on the manifestations of nostalgia in the last poems written in the face of death or its anticipation. It aims to illustrate the impact of longing that stirs within poets during their last moments, as well as the motivations for revisiting the past as a refuge for the soul, either as an escape from reality or in pursuit of psychological stability and peace. The research is structured within a theoretical framework that elucidates key concepts (The Last Poems Nostalgia). The first section explores the nostalgia associated with place, focusing on how poets draw upon memories of their homeland and nation. The second section examines the nostalgia of time, reflecting on the return to childhood and bygone days. The third section addresses the nostalgia for people, highlighting the poets' evocation of family and loved ones in their last situation. The fourth section delves into the nostalgia for glory and heroism that has influenced the poets in their final poetic endeavors. This is followed by a conclusion summarizing the key findings and recommendations, along with a comprehensive list of sources. The study employs both psychological and objective methodologies to uncover the expressions of nostalgia and its effects on poetic texts.

المقدمة:

وقف الشعراء في مراثي الذات -وفي القصائد الأخيرة بشكل عام- مواقف متعددة تكشف عن رؤاهم الفكرية والفلسفية تجاه الموت، وانبعثت بعض الرؤى من جانب نفسي ينبع من مكنونات النفس البشرية، ويربط بين الحالة الشعورية والموقف الأدبي، ومن هنا اتجه النقد الأدبي إلى دراسة الجانب النفسي محاولًا الكشف عن العلاقة بين الحالة النفسية الشعورية والنص الأدبي؛ للوقوف على مظاهر التأثر والتأثير بينهما، وتفسير النص تبعًا للحالة الشعورية، أو قراءة الشخصية انطلاقًا من فهم النص وربطه بنفسية الشاعر.

وتهدف الدراسة إلى الوقوف على مظاهر النوستالجيا التي تنظر للحنين بوصفه اضطرابًا نفسيًا، ترتحل فيه النفس إلى الماضي، لبواعث وأسباب نفسية يمكن الوقوف على معالمها عند سبر أغوار النص، ومحاولة إيجاد العلاقة التي تربط الشاعر بماضيه وحاضره وحالته الشعورية؛ وذلك من خلال الوقوف على نماذج مختارة من الشعر العربي قديمًا وحديثًا.

وتنهض هذه الدراسة على فكرة ابتدائية متمثلة في الحنين إلى الماضي عند مواجهة الموت أو الاقتراب منه، وكما قيل: (لا شيء يجعل تذكر الماضي جميلًا من احتمال موت وشيك)، وهي فكرة متحققة في القصائد الأخيرة، بوعي من الشعراء أو بغير وعي، وكأنهم بذلك يبحثون عن الحلقة التي تصل الحاضر بالماضي، وتشكِّل فكرة الديمومة والاستمرار الزمني المرتبط بحياة الإنسان؛ فيحيل الآخرُ إلى الأول، ويتمرد على النهاية بالعودة إلى البداية وتخليد الذكرى، لتكون معادلًا للخلود المستحيل.

وتتمحور تساؤلات الدراسة حول ماهية النوستالجيا، وعلاقتها بالقصائد الأخيرة للشعراء، وأبرز مظاهرها في تلك النصوص الشعرية، إضافة إلى رصد بواعث النوستالجيا عند الشعراء في قصائدهم الأخيرة.

وقد اهتمت الدراسات الأدبية والنقدية بشعر رثاء الذات، وانطلقت الدراسات من موضوعات متعددة، إلا أن الباحث لم يقف على دراسة تناولت ظاهرة النوستالجيا في مفهومها الخاص المرتبط بالاضطراب النفسي المؤدي إلى تذكر الماضي والحنين إليه في القصائد الأخيرة للشعراء، وإنما ورد الحديث عن الحنين في مراثي الذات بوصفه موضوعًا عامًا من الموضوعات التي طرقها الشعراء، عند تذكر الماضي والندم على ما فرَّط فيه، أو التشوق للأهل والأصحاب، أو الدراسات التي اهتمت بالنوستالجيا عند أحد الشعراء، مثل "مظاهر النوستالجيا في شعر امرئ القيس" لعزت إبراهيمي وصدّيقة جعفري، و "ملامح النوستالجيا في شعر أسامة بن منقذ" للدكتورة هبة مصطفى والدكتور علي السواعير، و "دراسة ظاهرة النوستالجيا في شعر محمد الماغوط" للدكتور إسحاق رحماني وصبية ظفرآبادي، وهي دراسات ترتكز على نتاج شاعر واحد بشكل عام، إضافة إلى أن هؤلاء الشعراء لم يكونوا ضمن مدونة هذه الدراسة.

وتنطلق الدراسة من مقاربة موضوعية نفسية؛ لتجلية مظاهر النوستالجيا، وأثرها في النصوص الشعرية -مدونة الدراسة-، المتمثلة في نماذج من الشعر العربي، كمراثي الذات عند بشر بن أبي خازم، وأفنون التغلبي، وعبد يغوث، ومالك بن الريب، وجعفر بن علبة، والقصائد الأخيرة لطرفة بن العبد، والمعتمد بن عباد، وابن عمار الأندلسي، وابن زريق، ومن الشعر الحديث قصائد بدر شاكر السياب، وأمل دنقل التي كُتبت في رحلة المرض الأخير، وقصيدة (حديقة الغروب) لغازي القصيبي.

وقد تشكَّل هيكل الدراسة في مقدمة، ومهاد نظري للتعريف بالمفاهيم الأساسية (النوستالجيا – القصائد الأخيرة)، وأربعة محاور: حيث يستعرض **المحور الأول** نوستالجيا المكان وتوظيف الشعراء لذكريات الوطن والديار، ويأتي **المحور الثاني** على نوستالجيا الزمن والعودة إلى عهد

الطفولة والأيام القديمة، فيما يتضمن **المحور الثالث** نوستالجيا الأشخاص واستدعاء صور الأهل والأحبة في مواقف الشعراء الأخيرة، أما **المحور الرابع** فيقف عند نوستالجيا المجد والبطولة التي لازمت الشعراء في تجاربهم الشعرية الأخيرة، تتبعها خاتمة لأبرز النتائج والتوصيات، مذيلة بقائمة للمصادر والمراجع.

التمهيد:

•مفهوم النوستالجيا:

إن طبيعة الأدب تقوده نحو الانفتاح على العلوم الأخرى، من حيث التأثر والتأثير، وتشكيل الهوية الأدبية التي تتكون من خلال التجارب الإنسانية، والنزعات النفسية، وما تحمله النفس من مشاعر تصنع الأدب، وتتشكل من خلاله، أو يتشكل من خلالها.

ولعل العلاقة بين الأدب وعلم النفس من أظهر العلاقات التي تتشكل في العمل الأدبي من خلال بنيته اللغوية ومضامينه، وما يحمله من دفقات شعورية، تنبئ عن التماهي بين النص الأدبي ومكوناته، وفي مرحلة أخرى تتجاوز ذلك إلى الكشف عن ما يحمله النص من جماليات متوارية خلف اللغة الأدبية، إلا أن هذه العلاقة لا تُفضي بالأدب ليكون مادة أو عينة لتجارب علم النفس وفرضياته[١]، بقدر ما يمكن من خلال هذه العلاقة تفسير الأدب، وترشيح بعض المعاني والأفكار التي يضمها.

ويُعد مصطلح "*نوستالجيا*" (Nostalgia) من المصطلحات الناشئة في أحضان علم النفس؛ دالًا على الحنين للوطن، وما يحمله من مشاعر الشوق واللهفة للبلد والأهل[٢]، وهو من المصطلحات العابرة بين العلوم، التي يمكن من خلالها تعالق الدرس الأدبي بموضوعاته ومضامينه، وما يحويه النص الأدبي من مشاعر وعواطف يعبر عنها الأديب، مستحضرًا الماضي الذي نشأ فيه حقيقة، أو الماضي المتخيل، متقاطعًا بذلك مع الـ(يوتوبيا)، وبناء عالم خيالي يقوم على الفضائل والخير المطلق[٣].

ويشير معجم أكسفورد إلى مصطلح نوستالجيا (Nostalgia) بمعنى "الشعور الجارف بالحنين إلى الأوطان، وعهود المرء الماضية"[٤]، فهو شعور يرتحل بالإنسان نحو الماضي بكل مكوناته الزمانية والمكانية، المتمثلة في مرحلة البدايات، بما فيها من أحداث وأشخاص وأحلام وذكريات، تجد فيها النفس خَلاصًا أو مُتنفسًا من الواقع وما يحمله من ألم وصراع داخلي.

وكانت البداية الطبية للمصطلح بوصفه مرضًا ينجم عن التعلق المفرط بوطن بعيد، أدى إلى مضاعفة الشعور بالألم لدى المرضى، وأوصلهم ذلك إلى الموت[٥]. ثم اتسع المفهوم معبرًا عن التعلق بالوطن، أو المكان بشكل عام، أو الماضي، أو الزمان، وما يصاحب ذلك التعلق من شعور بالألم والحرمان

(١) عز الدين إسماعيل، *التفسير النفسي للأدب*، ط٤، (القاهرة: دار غريب للطباعة، د. ت)، ١٧

(٢) لطفي الشربيني، *معجم مصطلحات الطب النفسي*، (الكويت: مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، د. ت)، ١٣

(٣) جميل صليبا، *المعجم الفلسفي*، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢)، ٢/ ٢٤

(٤) موقع *قاموس أكسفورد الإنجليزي Oxford English Dictionary*، تم الوصول في ٣ سبتمبر ٢٠٢٤، https://www.oed.com/?tl=true

(٥) إسلام سعدي، "*النوستالجيا المصطلح الطبي الذي انتهى إلى حالة شاعرية*"، *موقع منشور*، ١٤ أغسطس ٢٠١٨ /https://manshoor.com/society/nostalgia-illness-and-meaning

والعجز عن العودة، ثم أصبح مصطلحًا شائعًا للدلالة على التعلق بالماضي أو الحنين إليه[٦].

وتنطلق النوستالجيا في الحقل الأدبي من شعور انفعالي يتغذى على الخيال، وهو ما يدعو الأدباء إلى توظيف الذاكرة الجمعية في بناء الماضي، وفق رؤية عامة تنظر للماضي بجماله أو مثاليته، أو الارتحال إلى ماضٍ مبني على رؤية وفلسفة خاصة[٧].

وتجدر الإشارة إلى أن النوستالجيا في الحقل الأدبي ليست حاملة للألم والحزن مطلقًا؛ إذ تدل بعض الحالات الشعورية على الفرح والسعادة؛ نتيجة للحالة التي يعيشها الأديب وهو في غمرة رحلته الشعورية، فهو ارتباط مباشر بين الحالة الشعورية الحقيقية، والحالة المستدعاة من الماضي، سواء كان ذلك الماضي حقيقة أو خيالًا، كما أنها "شعور استرجاعي مرتبط بهوية ثقافية أو دينية أو حضارية، يتجسد في وجدانيات عاطفية قوية تجاه الوطن"[٨] أو الزمان والمكان وعناصرهما.

وتتقاطع النوستالجيا مع مفهوم الغربة التي تزخر بها الدراسات الأدبية، إلا أن الغربة والاغتراب ظاهرة وجودية وفلسفية تنزع نحو التعبير عن الانعزال، وعدم القدرة على التكيف والاندماج، والضياع والرفض والتمرد[٩].

إن الحديث عن الماضي يقودنا إلى تحديد عناصر الماضي التي ارتبط بها الأدباء، وكثيرًا ما نقف على عنصري الزمان والمكان؛ حيث يمثلان المنطلق الرئيس لرحلة المشاعر إلى الماضي، وإلى الأماكن المرتبطة بالذاكرة، وما فيها من تفاصيل تتمثل في الأحداث والذكريات والقيم والأشخاص الذين تستدعيهم الذاكرة في لحظة الحزن أو الفرح، وهي التفاصيل التي ارتحل الشعور إليها طلبًا للدفء والأمان المفقود.

والمتأمل في رحلة الذاكرة نحو الماضي والحنين إليه يدرك المسافة بين الماضي الحقيقي الذي يستدعيه الشعور، والماضي الخيالي الذي يبدعه العقل البشري لرسم عالم مثالي يخلص إليه، لتكون النوستالجيا في بعض جوانبها إبداعات عقلية محضة[١٠]، ينسجها الإنسان ويعيش فيها لحظات أشبه بالحلم أو النشوة التي يتقوى بها على مواجهة الواقع.

ومن هنا فقد سارت الدراسات البحثية إلى تفسير النوستالجيا وفق اتجاهين رئيسين: أحدهما ينطلق من كون الحنين إلى الماضي شعورًا إيجابيًا، ينظر للحياة من جانبها المشرق، ويستدعي الماضي لتعزيز رؤيته المستقبلية، والثاني يؤكد أن تفسير هذا الحنين لا يتكشَّف من خلال التجارب المعملية في المختبرات النفسية، بل لا بد أن يخرج إلى نطاق الحياة اليومية للإنسان، ومتابعة تصرفاته وانفعالاته، وبذلك تُبنى النتائج على معطيات حقيقية، تتسم بالدقة والوضوح[١١].

•القصائد الأخيرة / مرثية الذات:

يُعدُّ الشعر ديوان العرب وسجلَّ آثارهم ومآثرهم، وخزينة أيامهم وأخبارهم، ينطلقون منه، ويَصلون إليه، ويظل أنيسهم وجليسهم حتى في أشد أوقاتهم؛ عند مواجهة الموت؛ لذلك فقد لجأ بعض الشعراء إلى تدوين الموقف الأخير، متَّبعين بذلك طرائق متعددة، واتجاهات متباينة،

(٦) هبة مصطفى وعلي السواعير، "*ملامح النوستالجيا في شعر أسامة بن منقذ*"، *مجلة جامعة تبوك للعلوم الإنسانية والاجتماعية*، ١، ٤ (٢٠٢٤)، ٥٦٧/١

(٧) عبدالملك آل الشيخ، "*النوستالجيا الشعرية بين الأنا والآخر في ديوان (هذه الأنثى وطن) لأسماء الجنوبي*"، *مجلة كلية دار العلوم جامعة الفيوم*، ٥٥ (٢٠١٩)، ١٦

(٨) مكي سعد الله، "*النوستالجيا الأندلسية: مقاربة في حفريات المصطلح وتمظهرات الأنا في مرآة ماضيها*"، *مجلة تبين للدراسات الفكرية*، ٤٨، ١٢ (٢٠٢٤)، ٨٩

(٩) المرجع السابق: ٨٨

(١٠) عبدالرحمن النملة، "*نوستالجيا*"، *مجلة فكر*، ٣٠ (٢٠٢٠)، ٢٧

(١١) المرجع السابق: ٢٧

تعكس شخصية الشاعر، وتُجلِّي عن قدرته الفكرية والنفسية والفنية؛ ليقول كلمته الأخيرة في هذه الحياة.

إن القصائد الأخيرة أو مرثية الذات قد تُعطي تصورًا عن موت صاحبها بعد نظمها، إلا أنها في حقيقة الأمر قد نُظمت في حال مواجهة الموت، أو الشعور بقربه؛ فكان "الشعراء يرثون أنفسهم وهم يجابهون الموت، أو يقتربون منه، أو يتوقعونه"[١٢]، بغض النظر عن النتيجة التي آلت إليها تلك المواجهة.

وكما يختلف الناس في مواجهة الموت "كل واحد يدخل الموت بطريقة تشبهه، بعضهم يفعلون ذلك في صمت، على أطراف الأصابع، آخرون ماشين القهقرى، آخرون طالبين المسامحة والإذن، هناك من يدخل مجادلًا أو مطالبًا بتفسيرات، وهناك من يفتح طريقه فيه لاكِماً سابّاً، هناك من يعانقه، هناك من يغطي عينيه، هناك من يبكي"[١٣]، وهناك من يتسلى عنه بالماضي!

كذلك الشعراء قديمًا وحديثًا؛ فقد خلَّد بعضهم تلك اللحظات في أشعارهم، فها هو بشر بن أبي خازم عندما أصيب بسهم في إحدى غاراته، ظنَّ أنه هالك؛ فرثى نفسه قبل موته بقصيدته البائية[١٤]:

أسائلةٌ عُميرةُ عن أبيها خلال الجيشِ تعترف الركابا
تُؤمِّلُ أن أؤوبَ لها بنهبٍ ولم تعلم بأن السهمَ صابا

وعبد يغوث، سيد بني الحارث، عندما أسره بنو تميم وهمُّوا بقتله، نظم مرثيته قبل موته[١٥]:

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا فما لكما في اللومِ خيرٌ ولا ليا

وإذا ذُكرت مراثي النفس فلا بد أن تحضر قصيدة مالك بن الريب التي أنشأها في مرض موته عندما شعر بدنو أجله[١٦]:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة بجنب الغضا أُزجي القلاصَ النَّواجيا

ولشعراء العصر الحديث وقفات في مواجهة الموت، تبلورت في رؤى فلسفية، وتأملات حول حقيقة الموت وانتظاره، وهي في أكثرها قصائد مصاحبة للمرض والشيخوخة، حين يتوقع الشاعر قرب رحيله، ومن ذلك قصائد بدر شاكر السيَّاب الأخيرة التي سطَّرها في رحلة مرضه الأخير، ومنها قصيدته (**من ليالي السهاد – ليلة في باريس**)، وقصائد أمل دنقل التي كتبها تحت وطأة المرض، في غرفة المستشفى، وصدر عنها ديوانه (**أوراق الغرفة ٨**)، وكذلك الحال مع غازي القصيبي حين نظم قصيدته (**حديقة الغروب**) "وامتزجت فيها شهوة الكتابة بنشوة الموت"[١٧].

والشعراء كغيرهم، لكلٍّ طريقته في مواجهة الموت، وتدوين كلمته الأخيرة، بين حسرة على ما مضى، واعتذار عما سلف، وتوبة عما بدر، وتمرد على النهايات، هناك أيضًا من عاد نحو البدايات، نحو الماضي، يلجأ إليه، ويتسلَّى بذكره وذكرياته، ويتأسَّى على ما ترك وراءه، أو حالمًا بعالم مليء

(١٢) مقداد رحيم، *رثاء النفس في الشعر الأندلسي*، (الأردن: جهينة للنشر والتوزيع، ٢٠١٢)، ١٥

(١٣) إدواردو غاليانو، "*السلطة كالكمان -أخذ باليسرى وعزف باليمنى*"، ت: محمد العشيري، *مجلة الكرمل*، ١٥ (١٩٨٥)، ٢٦١

(١٤) بشر الأسدي، *ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي*، تح. عزة حسن، (دمشق: مديرية إحياء التراث القديم، ١٩٦٠)، ٢٦ من مقدمة التحقيق، و ٢٤ من الديوان.

(١٥) عبدالقادر البغدادي، *خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب*، تح. عبدالسلام هارون، (القاهرة: مكتبة الخانجي، د. ت)، ٢/ ٢٠٢، والمفضل الضبي، *المفضليات*، ط٦، تح. أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، (القاهرة: دار المعارف، د. ت)، ١٥٥

(١٦) مالك بن الريب، "*ديوان مالك بن الريب -حياته وشعره-*"، تح. نوري القيسي، *مجلة معهد المخطوطات العربية*، ١٥، (د. ت)، ١/ ٨٧

(١٧) لولوة آل خليفة، "*القصيبي وحديقة الغروب*"، *صحيفة الأيام*، (المنامة: البحرين)، ٢٩ أبريل، ٢٠٢٤ ، https://alay.am/p/83wo

بالأمل والتحدي، كاشفًا بذلك عن انشطار ذاتي بين الذات الحاضرة، والذات المسافرة نحو الماضي، واضطراب نفسي تتجلى فيه المفارقة بين رفض الواقع والاستسلام له، واللجوء للماضي أو الخروج عليه(١٨).

وعلى الرغم من تعدد أسباب الموت، واختلاف مستويات حضورها على مر العصور، فهي مع ذلك لم تكن عائقًا أمام الشعر، بل وجد فيها الشعراء فرصة لتخليد ذكراهم، وبيان مآثرهم وأمجادهم، وإعلاء ذكر قبائلهم، ووسم أعدائهم بميسم الذل والهوان.

وإذا كانت النفس البشرية مجبولة على المقاومة، وغريزة البقاء تحتِّم عليها المواجهة، فهي أيضًا تشعر أنها أمام مواجهة خاسرة ضد اليقين؛ حيث لا أحلام متوقعة، ولا مستقبل منتظر، فيكون اللجوء إلى الماضي أحيانًا نوعًا من التمرد على الواقع، ورفض الاستسلام؛ لأن الإنسان في تلك اللحظة يبحث عن طريق للبقاء.

وقد دوَّن الشعراء حنينهم لأوطانهم وديارهم، وشوقهم إلى عهد الطفولة ومراتع الصبا، وذكروا زمن الأنس والوصل بأهلهم ومحبوباتهم، واسترجعوا لحظات الصفاء مع أصدقائهم وأقرانهم، وعدَّدوا الصفات والقيم التي حملوها عن أسلافهم، حتى بلغ اهتمامهم بالحنين أن افتُتحت به قصائدهم في ذكر الديار وأهلها، والوقوف على أطلالها، ومساءلة آثارها ورسومها.

أما شعر المراثي، وفي مراثي الذات خاصة؛ فإن الحنين يسير في اتجاهين: ظاهر وضمني، أما الأول فيتمثل في استدعاء الماضي بكل مكوناته؛ هروبًا إليه من الواقع، واستنجادًا بأمانه ودفئه، والثاني يسعى الشاعر من خلاله إلى الخلود؛ رفضًا للواقع وتمردًا عليه، ويبرز ذلك في اقتران الماضي بذكر البطولات، وبيان حجم الخسارة الناتج عن فقد الشاعر، وسيأتي بيان ذلك.

لذلك فإن الحنين إلى الماضي بهذه الصورة نابع عن حس انفعالي، وعاطفة كامنة في عمق النفس، مما يتطلب الوقوف على بواعثها ومعالمها؛ باعتبارها حالة شعورية خاضعة للتحليل النفسي، الذي يستدعي تأويل الحالة وفق الافتراضات والمسلَّمات(١٩)، ومقاربة نتائج التأويل بتتبع الصلات والعلاقات النصية والسياقية، وصولًا إلى تفسير الغامض وتقريبه، وبيان التناقض وتأويله، والكشف عن المعاني الخفية خلف اللغة الشعرية.

وتتمثل مظاهر النوستالجيا في القصائد الأخيرة في: نوستالجيا المكان / الوطن والديار، ونوستالجيا الزمن / عهود الصبا والأيام القديمة، ونوستالجيا الأشخاص / المحبوبة والأهل والأصدقاء، ونوستالجيا القيم والمبادئ.

أولا: نوستالجيا المكان / الوطن والديار:

يحضر المكان في ظاهرة النوستالجيا ليكون أحد أبرز العناصر الكاشفة عن الحالة النفسية عند الشعراء، ذلك الحيِّز الذي تدور فيه الأحداث، وترتبط به الذكريات، مستدعية المشاعر والعواطف المتشكلة في الذاكرة، وكل ما يحيط بالمكان من مؤثرات حسية أو معنوية؛ ليرتبط المكان ارتباطًا مباشرًا بالبُعد النفسي لدى الشعراء، ويؤدي وظائف فنية متعددة؛ حيث نستطيع من خلال استدعاء المكان أن نستدعي السياقات والأبعاد والمكونات المرتبطة به، مما يؤدي إلى ما يشبه الحوارية مع المكان، وإضفاء الروح عليه(٢٠).

---

(١٨) العنود العنزي، *المفارقة في شعر رثاء النفس بين القديم والحديث لنماذج شعرية مختارة*، (الشارقة: ملامح للنشر والتوزيع، ٢٠٢٤)، ٣٠

(١٩) فيصل عباس، *التحليل النفسي والاتجاهات الفرويدية*، (بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٩٦)، ٢٠

(٢٠) مدحت الجيار، *جماليات المكان في مسرح صلاح عبدالصبور*، في كتاب جماليات المكان، أحمد طاهر حسنين، وآخرون، ط٢، (الدار البيضاء: عيون المقالات، ١٩٨٨)، ٢٢

إن نوستالجيا المكان تستدعي حضور الزمن ضمنًا؛ فقيمة المكان تكون مكتسبة من الزمن، فـ"المكان في مقصوراته المغلقة التي لا حصر لها يحتوي على الزمن مكثفًا، وهذه وظيفة المكان تجاه الزمن، إلى جانب وظائف أخرى ترتبط بتقنيات النص، وبنوعه الأدبي، بل بالموضوع المعالج أيضًا"[٢١]، فهي تربط الإنسان بالحيز المكاني الذي يشكّل عالم الإنسان الأول، ذلك العالم الذي يُبنى ويكبر بالأفكار والذكريات والأحلام الإنسانية، وهو مبدأ فلسفي انطلق منه (غاستون بلاشر) عند حديثه عن (البيت) وعلاقته بتكوين الإنسان[٢٢]، فيلجأ إليه الإنسان أكثر من الزمن؛ كون المكان يُدرك حسيًا، ويمكن أن تتفاعل معه النفس من خلال الواقع، أو الأحلام التي يُلبسها الواقع، على عكس الزمن الذي يُدرك إدراكًا غير مباشر، لذا فقد لجأ البشر إلى بناء تصوراتهم ورؤاهم على العالم المادي الذي يعرفون تفاصيله، ويألفون مكوناته[٢٣].

وبالنظر إلى حضور نوستالجيا المكان في القصائد الأخيرة تبرز العلاقة بين المكان ومفهوم الحرية، الذي أكدت (سيزا قاسم) تفاعلهما، بحيث يصبح المكان المستدعى من الماضي أو المكان المبني على الأحلام أو اليوتوبيا تمردًا على الواقع المتسم بالقهر وفرض القيود على النفس البشرية، وهو معنى مُرشَّح ظاهر في لجوء الشعراء في قصائدهم الأخيرة إلى رفض النهاية، والسعي نحو الحرية.

ومن أسمى مظاهر الحنين (الحنين للوطن) أو للديار التي صنع فيها الإنسان ذكرياته، لمرتع الطفولة والأحلام، للمكان الذي تشكلت فيه أحلام اليقظة والخيال؛ فالمكانية في الأدب هي "الصورة الفنية التي تذكّرنا أو تبعث فينا ذكريات بيت الطفولة"[٢٤]، ومن هنا نجد أن شعراء القصائد الأخيرة قد أكثروا من استدعاء أماكن الطفولة والصبا والشباب، وهو استدعاء لكل مكوناته الحسية التي تنبعث منها المكونات المعنوية والعواطف، ولعل أبرز ما يُتمثل به في هذا الجانب مرثية مالك بن الريب، التي افتتحها بحنين شديد، ولوعة واغتراب، حين دنا منه الأجل، بعيدًا عن موطنه، وهو موقف أشد ما يكون الإنسان فيه مرتبطًا بدياره وأهله، يقول ابن الريب[٢٥]:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً بجنب الغضا أُزجي القِلاصَ النَواجيا
فليت الغضا لم يقطع الرَّكبُ عرضَهُ وليت الغضا ماشى الرِّكاب لياليا
لقد كان في أهل الغضا لو دنا الغضا مزارٌ ولكنَّ الغضا ليس دانيا

حنين متوقد يظهر منذ أول أبيات مرثيته، يتمنى فيه العودة إلى وطنه وديار أهله، ويرسم مشهدًا حيًا ترعى فيه النوق، مستحضرًا مشهد الرحيل من دياره، ومؤكدًا بُعد الدار وأهلها عنه، وهو بُعد حقيقي وبُعد مجازي نفسي في آن واحد، تنبعث منه غربة روحية يعيشها الشاعر؛ حيث يوشك على فراق الدنيا بعيدًا عن وطنه، فكانت فكرة الرحيل دون وداع ودون نظرة أخيرة للوطن والأهل تسيطر على وجدانه، وتنبعث من أعماق نفسه؛ لتتجسد في لغته، ويبدو ذلك من خلال تكراره للتمني بـ (ليت)، ومن تكرار اسم موطنه (وادي الغضا) الذي يحن إليه بعد أن أدركه المرض وهو عائد في جيش سعيد بن عثمان من خراسان، ووافته المنية في مكانه ذلك بعيدًا عن الأهل والديار.

ويشير توظيف الشاعر لوادي الغضا إلى مفارقة تتمثل في تمني العودة لذلك الوادي، والحياة البسيطة التي كان يعيشها،

(٢١) الجيار، *جماليات المكان في مسرح صلاح عبدالصبور*: ٢١
(٢٢) غاستون باشلار، *جماليات المكان*، ت: غالب هلسا، ط٢، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٤)، ٣٨
(٢٣) يوري لوتمان، *مشكلة المكان الفني*، ت: سيزا قاسم، في كتاب جماليات المكان، أحمد طاهر حسنين، وآخرون، ط٢، (الدار البيضاء: عيون المقالات، ١٩٨٨)، ٥٩ مقدمة المترجمة.
(٢٤) باشلار، *جماليات المكان*: ٦ مقدمة المترجم
(٢٥) ابن الريب، *الديوان*: ٨٧

مفضِّلًا إياها على المدينة الكبيرة (خراسان)، وما كان يحلم بكسبه من هذه الرحلة الجهادية، وكأنه متحسر على ترك داره وأهله، ولو قُدِّرت له النجاة لن يغادر دياره أبدًا، وفي ذلك يقول:

لعمري لئن غالت خراسان هامتي لقد كنتُ عن بابَي خراسان نائيا
فإن أنجُ من بابَي خراسان لا أعد إليها وإن منَّيتموني الأمانيا
فلله درِّي حين أَتركُ طائعا بَنِيَّ بأعلى الرقمتين وماليا

وتتكرر الحسرة مجددًا عند ذكر البلد الذي رحل إليه (خراسان)، وهو تكرار مضاد لتكرار (الغضا)؛ فإذا كان تكرار (الغضا) يُحيل إلى تعلقه بدياره وموطنه (المكان الآلف)، فإن تكرار (خراسان) يُحيل إلى بغض المكان في نفسه (المكان المعادي) الذي حال بينه وبين أهله ووطنه، يقول:

وأصبحتُ في أرضِ الأعاديِّ بعدما أراني عن أرض الأعاديِّ نائيا

فهو يؤكد منزلة هذا المكان في نفسه، فهو أرض الأعادي، مؤكدًا على ذلك بتكرار لفظة (الأعادي) في شطري البيت؛ ليشحن النص بمزيد حسرة وتوجع وحنين.

إن المكان في مرثية ابن الريب كان باعثًا للحنين موصلًا إليه، على اختلاف نوع المكان (الآلف – المعادي) إلا أنه حضر في صورة أخرى تثير الحنين، وذلك بعد أن أصبح المكان سببًا في بُعده عن وطنه، فكل الأماكن تتجسد أمامه وكأنها حائل يعيقه عن الوصول إلى دياره:

أقول وقد حالت قُرى الكُردِ بيننا جزى الله عمرًا خيرَ ما كان جازيا
إن الله يُرجِعني من الغزوِ لا أُرى وإن قلَّ مالي طالبا ما ورائيا

فهي قرى كثيرة تحول بينه وبين دياره، وهذه الكثرة مرتبطة بالحالة النفسية التي يعيشها؛ فالمسافة في نظره طويلة، والعوائق في طريق عودته كثيرة، وناسب هذه الحالة الشعورية أن يستخدم معها أداة الشرط (إنْ) في دلالتها على تغليب جانب الاستحالة، أو ضعف احتمال العودة إلى الوطن.

وإذا عدنا إلى العلاقة بين المكان والزمن وارتباطهما، بحيث قد يكون الزمن دالًا على المكان، والمكان دالًا على الزمن، فيُمكن أن نرى أثر ذلك في استحضار المكان عن طريق الزمن في القصائد الأخيرة، وفي إشارة واضحة إلى " العلاقات الجوهرية المتبادلة بين الزمان والمكان المستوعبة في الأدب استيعابًا فنيًا"[٢٦]، ومن هذا المنطلق ظهر مصطلح (الزمكان) عند (ميخائيل باختين) تأكيدًا على هذا التماهي بين الزمان والمكان.

وانطلاقًا من هذه العلاقة الزمكانية يمكن أن نلحظ هذا التقاطع من خلال إحدى قصائد بدر شاكر السياب، وهي قصيدة (ليلة في باريس) التي نظمها في الكاتبة البلجيكية (لوك نوران) بعد أن أصبحت صديقته التي تواسيه في رحلة علاجه من مرضه الأخير عندما كان في باريس، قبل أن يفتك به المرض[٢٧]، يقول السياب[٢٨]:

وتركتِ لي شفقًا من الزهراتِ جمَّعها إناءْ
كالأنجمِ الزرقاءِ والحمراء في أفقٍ به حلم الصغير
أرجعنَ لي عمرَ الطفولة: يا محارًا في غدير
تتقارع الأقداح فيه، تَرِنُّ أجراسٌ كِثار
خوخٌ وأعنابٌ ورمّان .. وتمتلئ الجِرار
عند الغروب، هو الخريف ونحن نسمر حول نار

هذه الرحلة الزمنية نحو الماضي وعمر الطفولة تحمل في جنباتها تشكيل صورة المكان؛ عن طريق المشاهد الحية التي رسمها السياب، وطرَّزها بألوانها، وأحاطها بأصواتها وألحانها، في صور تتآزر لتكوين مشهد حي في حيِّز مكاني

(٢٦) ميخائيل باختين، *أشكال الزمان والمكان في الرواية*، ت: يوسف حلاق، (دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٠)، ٥

(٢٧) إحسان عباس، *بدر شاكر السياب – دراسة في حياته وشعره*، ط٢، (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٢)، ٣٥٣ ، وينظر: أحمد طه، "*كتابة النهاية – رثاء النفس في الشعر العربي المعاصر*"، *مجلة فصول*، ٨٧-٨٨، (٢٠١٣-٢٠١٤)، ٣٣٩

(٢٨) بدر السياب، *ديوان بدر شاكر السياب*، (بيروت: دار العودة، ٢٠١٦)، ٢/ ٦٢١

خاص، من خلال سرد تفاصيل المكان ومدِّها بحركية نشأت في وجدانه، ثم ترجمها إلى نصه الشعري.

وأشير هنا إلى أن المكانية في الأدب لا تشترط الوجود الحقيقي، وإنما قد يبني الشاعر مكانًا من حلم يكون مسرحًا للأحداث والذكريات، يضفي عليه من المشاعر والعواطف ما يجعله معادلًا للمكان الحقيقي الذي تُصنع فيه التجارب، وقد تطرق إلى هذه القضية الناقد الفرنسي (بيير بيار) حين تحدث عن وصف الأمكنة التي لم تُزر من قبل، وكيف يمكن للأديب أن يحوِّل الأماكن التي لا يعرفها إلى أماكن حقيقية[٢٩].

ويعاود السياب رحلته نحو الماضي قاصدًا العراق/ المكان عن طريق الرجوع إلى السنين الماضية/ الزمان، حيث العراق: الوطن، والبيت، وأحلام الطفولة:

لو صَحَّ وعدكِ يا صديقه
لو صَحَّ وعدكِ .. آه لانبعثت وفيقه
من قبرها، ولعاد عمري في السنين إلى الوراء
تأتين أنت إلى العراق؟
أمدُّ من قلبي طريقه ...

إن العودة إلى الوراء حيث الطفولة والصبا هي عودة نحو المكان (جيكور)، حين وعدته صديقته (نوران) بزيارته[٣٠]، وقد ارتبطت العودة إلى المكان بعودة السنين من باعث نفسي؛ لأن السياب كان حبيس فراشه بعد أن اشتدت عليه وطأة المرض، والعودة إلى المكان القديم والأحلام الجميلة تستدعي عودة إلى الماضي المفعم بالصحة وقوة الشباب، لا سيما عندما تكون الأحلام تدور حول الحب وصبابته، ومما يُلحظ في حنين السياب توظيفه للرمز والأسطورة في سبيل العودة إلى الماضي؛ متخذًا من (وفيقة) رمزًا أسطوريًا ينبعث معه الماضي وذكرياته، وتنبعث معه الحياة التي يجابه بها وطأة المرض والأيام الأخيرة[٣١]، وهو ملمح بارز في قصائد السياب الأخيرة، وبعض قصائد أمل دنقل.

أما العودة إلى الوطن، المكان الفسيح مترامي الأطراف، فهو بارز في مرثيات الذات عند كثير من الشعراء، خاصة شعراء هذا العصر؛ حيث الانتماء للوطن/ الدولة، وما يمثله في وجدان أبنائه، فهو البيت الكبير، والملاذ الآمن، ونجد الوطن حاضرًا في القصائد الأخيرة عند السياب، ودنقل، والقصيبي، وغيرهم، ومن ذلك ما ضمَّته (حديقة الغروب) من خطاب موجَّه للوطن[٣٢]:

ويا بلادًا نَذرتُ العمرَ زهرَتَه لعِزِّها، دُمتِ، إني حان إبحاري
تركتُ بين رمالِ البِيدِ أُغنيتي وعند شاطِئِكِ المسحورِ أسماري
إن ساءلوكِ فقولي لم أبع قلمي ولم أُدَنِّس بسوق الزَّيفِ أفكاري
وإن مضيتُ فقولي: لم أكن بطلا وكان طفلي ومحبوبي وقيثاري

إن لحظات الوداع باعث حنين وشوق، وهذا ما يظهر في قصيدة القصيبي حين خاطب فيها ذاته وزوجه وابنته ووطنه، قبل أن يختمها بالتضرع إلى الله.. وهذا الخطاب على ما فيه من عاطفة متمثلة في وصايا الوداع، إلا أنها تُنبئ عن مدى الارتباط الروحي بين القصيبي والوطن، فهو يؤكد إخلاصه وتفانيه من أجل الوطن، بصحرائه وشواطئه ومدنه، وهذا الخطاب لا يصدر إلا من محب؛ وكأنه يوصي بأن يبقى خالدًا في ذاكرة محبوبه، حتى لا يُطوى ذكره مع الأيام.

كما تظهر نوستالجيا المكان من خلال استدعاء المكان الضد/ المعادي، فيحمل مشاعر الحنين إلى الوطن والديار، ويوحي بمظاهر الغربة الروحية التي يعيشها الشاعر في لحظاته الأخيرة، ويُلحظ ذلك في مرثية الشاعر الجاهلي أفنون التغلبي، وكان أفنون قد أتى كاهنًا فأخبره أن موته سيكون في

(٢٩) حسن المودن، *الأدب والتحليل النفسي*، (قطر: كتاب الدوحة، وزارة الثقافة والرياضة، د. ت)، ١١٧

(٣٠) طه، *كتابة النهاية*: ٣٣٩

(٣١) طه، *كتابة النهاية*: ٣٣٩

(٣٢) غازي القصيبي، *حديقة الغروب*، ط١، (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٧)، ١٧

مكان يدعى (إلهة)، وهو مكان مجهول عند أفنون، ومع جريان الأيام وتصرّمها سافر مع قوم إلى الشام، وعند عودتهم ضلوا الطريق، فدلهم رجل على بلدة قريبة يكون طريقهم منها، تدعى (إلهة) في الطريق بين الشام وديار تغلب، فلما سمع أفنون اسمها تطيَّر منها، ومع إصرار الركب ذهب أفنون شريطة ألا ينزل من راحلته، وأن ينتظرهم للتزود ثم يكملون طريقهم، وبينما ناقته ترعى لدغتها حية في مشفرها، فاحتكت بساقه ولدغته، فقال لصاحبه: احفر لي قبرًا فإني ميت[٣٣]، ورثى نفسه بمقطوعة شعرية، يقول في آخرها[٣٤]:

كفى حَزَنًا أن يرحلَ الرَّكبُ غُدوةً وأُتركُ في أعلى إلهة ثاويا

بيت واحد يلخص الغربة الروحية التي يعيشها الشاعر؛ حيث يستذكر بعده عن وطنه وأهله، فيرجع الركب إلى وطنهم وأحبتهم، ويبقى هو تحت الثرى في ذلك المكان المشؤوم، فيكون قد استحضر وطنه الآلف من خلال الوطن المعادي، وهو بذكره لاسم المكان (إلهة) كأنه يسترجع صدى الاسم حين سمعه من الكاهن قبل سنوات طوال.

وبهذا يظهر مدى تأثير المكان في الحالة النفسية للشاعر في موقف الوداع، ومدى حنين الشعراء إلى الماضي المكاني، وانعكاس ذلك الشعور على قصائدهم الأخيرة، وبحثهم عن المكان القديم بين أطلال الروح، والعودة إلى سكنى ذلك المكان شعوريًا، في سبيل العودة إلى الاستقرار الروحي المفقود.

ثانيا: نوستالجيا الزمن / عهود الصبا والأيام القديمة:

يمكن تقسيم الزمن -فلسفيًا- إلى قسمين: زمن فيزيائي كوني، متسم بالاستمرار وديمومة الحركة[٣٥]، وهو زمن ندركه بتتابع الأحداث الكونية واستمراريتها، وزمن نفسي، مرتبط بالذات، وهو زمن متعدد ومختلف بتعدد الذوات واختلافها، وهو زمن متسم بخصوصية التجربة.

وإذا كانت الفنون بشكل عام تتشكل من عناصر متعددة من أبرزها الزمان والمكان؛ فإن الأدب في كثير من جوانبه يُعد فنًا زمنيًا عند تصنيف الفنون إلى زمانية ومكانية[٣٦]؛ ذلك أنه معني بتوظيف الزمن في أشكاله الفنية المختلفة، ومتأثر به في بنية النص الأدبي وفق تراتبية الزمن، والخروج عليها لأغراض فنية، كما أن الزمن أحد العناصر المكونة للبنية الدرامية، وبمقدوره إبراز هوية الكيان الجمعي، والتجربة الفردية[٣٧].

ولا تخفى علاقة الزمن والتاريخ، تلك العلاقة التلازمية التي تجعلهما مؤثرَين في تكوين وبناء الإنسان والحضارة[٣٨]، وفي بناء النفس البشرية عبر تراكمية التجارب، وما يشاكلها من مؤثرات في النفس، لتصبح العلاقة تلازمية -أيضًا- بين الزمن والإنسان، من الناحية الطبيعية المرتبطة بعمر الإنسان، ومن الناحية الشعورية وتأثيرها على العواطف والأفكار.

والعلاقة ظاهرة بين الزمن والموت؛ إذ إن انتهاء الزمن الذاتي قرين الموت، كل منهما يؤدي إلى الآخر؛ لذلك كان تأثيره ظاهرًا في القصائد الأخيرة التي يحاول أصحابها مواجهة اللحظة الحاسمة في حياتهم، أو الخلوص منها، رغم

(٣٣) ابن قتيبة الدينوري، *الشعر والشعراء*، تح. أحمد شاكر، (القاهرة: دار المعارف، د. ت)، ١/ ٤١٩ ، وعبدالمعين الملوحي، *الشعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت*، (بيروت: دار الحضارة الجديدة، د. ت)، ٣٣٩

(٣٤) الضبي، *المفضليات*: ٢٦١ ، والدينوري، *الشعر والشعراء*: ١/ ٤١٩

(٣٥) محمد بن عياد، "*الزمن والشعر*"، *مجلة علامات*، ١٧ (٢٠٠٢)، ٤٠

(٣٦) سيزا قاسم، *بناء الرواية – دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ*، (القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤)، ٣٧

(٣٧) الجيار، *جماليات المكان في مسرح صلاح عبدالصبور*: ٢٢

(٣٨) إميل توفيق، *الزمن بين العلم والفلسفة والأدب*، (القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٢)، ١٤٢

إدراكهم ويقينهم بقدومه وحدوثه، إلا أنها مواجهة شعورية وجودية بين الإنسان وأجله، في سبيل السعي للخلود، ولو كان خلودًا مجازيًا؛ ولهذا فقد نظر الفلاسفة إلى زمان الحياة النفسية على أنه الزمان الحقيقي للإنسان في ذاته ووجوده، المرتبط بتدفق الحياة[٣٩].

وقد برزت نوستالجيا الزمن في الشعر العربي، كاشفة عن أثر الزمن في التجربة الشعرية والنفسية للشعراء، بدءًا بالوقوف على الأطلال؛ باعتبارها رحلة زمنية استرجاعية، تصل الحاضر بالماضي، وتحمل في طياتها لواعج الذكريات، ويستمر الزمن مصاحبًا للشعراء في مراحل حياتهم وتطور تجاربهم، وصولًا إلى استحضار الزمن في موقف الرحيل وانتهاء العمر.

إن المتأمل في مراثي الذات -قديمًا وحديثًا- يرى بجلاء حضور الزمن في حنين الشعراء إلى ماضيهم، من عهود الطفولة والصبا، إلى مرحلة الشباب وقوتها، والشيخوخة وضعفها، وانتهاءً بمحاولة خرق الزمن وتخليد الذات في لحظة الرحيل الأخير، ومن هنا كان الإحساس بالزمن في القصائد الأخيرة يحمل في طياته استرجاع أيام الصفاء ورغد العيش، وما كان يتمتع به الإنسان من ملذات؛ متحسرًا عليها، وراغبًا في العودة إليها، ومن ذلك قول عبد يغوث وهو في الأسر قبل مقتله[٤٠]:

أحقًا عبادَ الله أن لستُ سامعًا نشيدَ الرِّعاءِ المعزِبينَ المُتاليا
وقد كنتُ نَحَّارَ الجَزورِ ومُعمل الـ ـمَطيِّ وأمضي حيثُ لا حيَّ ماضيا
وأنحَرُ للشَّربِ الكِرامِ مَطِيَّتي وأصدعُ بين القَينتينِ رِدائيا

تحضر اللحظة الزمنية الأقرب إلى نفس الشاعر ووجدانه، حين كان يسمع صوت الرعاء في المراعي، وما تتضمنه الذاكرة من استحضار ذكرى الصوت وما فيه من دفء وصفاء، وكأن النفس هائمة في الماضي بمشاهده وأصواته وشعوره، وهذا الهدوء النفسي الذي استحضره الحنين، والاعتزاز بقيم الكرم المتمثل بنحر المطية، ومتابعة الملذات؛ يحيل إلى الحالة الشعورية والنفسية التي يقبع الشاعر تحت وطأتها وهو مكبل بالسلاسل في الأسر، محروم من أدنى مظاهر الحرية والأنفة؛ فأصبح الماضي ملاذًا للأسير، يبحث فيه عن شعور الأمان المفقود.

وإذا كانت تلك اللحظات في بساطتها وسذاجتها تعدل حياة كاملة للإنسان في بيئته الخاصة، فإن الأحلام تبدو أكبر عند الحنين إلى زمن القوة والملك والسُّؤدد، ذلك الزمن بما فيه من عزٍّ وسُلطة ورفاهية يظل صداها وتأثيرها أكبر؛ إذ إن وصول الإنسان إلى منزلة عليَّة ومجد تليد ثم فقده يتعدى أثره حدود الفقد الشخصي إلى فقد مجد كبير بناه الآباء والأجداد، فيكون أثره في النفس أكبر، وجرحه أعمق، ويظهر ذلك في قصائد المعتمد بن عبَّاد التي نظمها وهو في الأسر قبل أن توافيه المنية، بعد أن سقطت مملكته في أيدي المرابطين، وأُودِع السجن في بلدة أغمات بالمغرب[٤١]، يقول[٤٢]:

غريبٌ بأرضِ المغربينِ أسيرُ سيبكي عليه منبرٌ وسريرُ
وتندبُه البِيضُ الصَّوارمُ والقنا وينهلُّ دمعٌ بينهن غزيرُ
مضى زمنٌ والمُلكُ مستأنسٌ به وأصبحَ منه اليومَ وهو نفورُ
أذلَّ بني ماء السماءِ زمانُهم وذُلَّ بني ماء السماء كبيرُ
فما ماؤها إلا بكاءً عليهمُ يفيضُ على الأكبدِ منه بحورُ

فيحضر الزمن محمَّلًا بالغربة؛ غربة الزمان والمكان، فليس الزمن الحاضر كالماضي، بين علو وخفض، وقوة وضعف، وأُنس ووحشة، وعز وذل، لا يجمع بينها إلا استحضار الزمن لتشكيل المفارقة؛ محدثًا هذه المتناقضات المختلجة في نفس

(٣٩) رابح الأطرش، "*مفهوم الزمن في الفكر والفلسفة*"، *مجلة المعيار*، ١٣، (د. ت)، ١٤٠

(٤٠) الضبي، *المفضليات*: ١٥٥ ، والملوحي، *الشعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت*: ٤٠

(٤١) مقداد، *رثاء النفس في الشعر الأندلسي*: ٢١١

(٤٢) المعتمد بن عباد، *ديوان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية*، تح. أحمد بدوي وحامد عبدالمجيد، (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٥١)، ٩٨

الشاعر وشعوره، فهي غربة روحية مكانًا وزمانًا، بين القصر والأسر، وبين الماضي والحاضر، ويذهب المعتمد إلى عمق المعنى حيث يقلب الصورة فيجعل المُلك مستأنسًا به تارة، ونافرًا عنه تارة أخرى؛ محيلًا إلى تلاعب الزمن به، والانقلاب عليه وعلى مُلكه.

وحين يحضر المكان في قصائد المعتمد الأخيرة فإنه يحيل إلى الزمن، أكثر من دلالته على الحنين للمكان:

فيا ليتَ شِعري هل أبيتنَّ ليلةً أمامي وخلفي روضةٌ وغديرُ
بزاهِرِها السَّامي الذُّرى جادَه الحيا تُشيرُ الثُّريا نحونا ونُشيرُ
ويَلحظُنا الزَّاهي وسعدُ سعودِهِ غيورين والصَّبُّ المحبُّ غيورُ

فجاءت صورة المكان محيلة إلى الزمن؛ حيث يعاوده الحلم في العودة إلى القصور، وما فيها من رغد العيش ورفاهية الملك وهدوء النفس، وهو شعور بالزمن يستدعي كل ما يتعلق به من صور حسية، تنبئ عن شدة الحياة وقسوتها عليه في سجن أغمات.

ويأتي وزير المعتمد وصاحب شؤون دولته أبو بكر ابن عمار بمرثية ذاتية عندما ساءت الأحوال بينه وبين المعتمد بن عبَّاد؛ حيث سطا ابن عمار على حُكم (مرسية) بعد أن وقعت في يديه وهو عامل للمعتمد، ثم سقطت من يديه أيضًا، فرحل إلى سرقسطة، وقد أحس بدنو أجله وأنه مقتول لا محالة[٤٣]. يقول ابن عمار متحدثًا عن غربته وحنينه للأيام القديمة في موطنه[٤٤]:

كساها الحيا بُرد الشبابِ فإنها بلادٌ بها عقَّ الشبابُ تمائمي
ذكرتُ بها عهد الصبا فكأنما قدحتُ بنار الشوقِ بين الحيازمِ
لياليَ لا ألوي على رشد لائمٍ عناني ولا أثنيه في غيِّ هائمِ

غربة ذاتية جلية، تتكشف من خلال استعادة الماضي الدافئ، الذي لا يشوبه خوف وترقب، يسير فيه كيفما أراد، وكأنه يرثي الحال التي أصبح عليها، عند مقابلتها بأيام الشباب الوادعة، في حنين ممتزج بالألم والحزن الظاهر في قوله (فكأنما قدحت بنار الشوق بين الحيازم).

أما في الشعر العربي المعاصر فقد ظهرت مراثي الذات من بواعث متعددة، لعل أبرزها: المرض والشيخوخة؛ حيث شُغل بعض الشعراء بكتابة نهاياتهم عند إحساسهم بدنو الأجل، والاقتراب من الموت شيئًا فشيئًا، ومثل ذلك نجده عند الشاعر المصري أمل دنقل، حيث نظم عددًا من القصائد في (غرفة رقم ٨) بمعهد السرطان في القاهرة[٤٥]، وقد حاول دنقل في مرثيات الذات أن يحتفظ بشخصية العربي القديم، الذي لا يُظهر جزعًا من الموت، ويُخفي مشاعره خلف رؤيته وفلسفته للموت، والوقوف خلف ذكرياته وتجاربه القديمة، وهي شخصية استمدها من تجاربه وحياته المتقلبة داخل المجتمع المصري وما مر به من تحولات سياسية واجتماعية أثَّرت فيه وفي شعراء عصره، ويظهر ذلك جليًّا من خلال التجربة الشعرية وما فيها من ملامح الثورات والتحولات السياسية والاجتماعية للقومية العربية أو المجتمع المصري، كما يظهر في قصائد ديوان (البكاء بين يدي زرقاء اليمامة)، وديوان أقوال جديدة عن حرب البسوس)[٤٦].

وإذا نظرنا إلى آخر قصائده المؤرخة، وعنوانها (الجنوبي) نجدها تزخر بعدد من الموضوعات أو الثيمات البارزة، إلا أن حضور الطفولة وعهدها ونقاءها كان مؤثرًا رئيسًا في بنية القصيدة، ومدّها بمشاعر وعواطف منبثقة من ربط النهاية بالبداية، واستذكار الأيام الأولى في خضم الأيام الأخيرة، يقول في افتتاح قصيدته[٤٧]:

هل أنا كنتُ طفلًا؟

---

(٤٣) مقداد، *رثاء النفس في الشعر الأندلسي*: ٢٢٦

(٤٤) أبو الحسن علي بن بسام الشنتمري، *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة*، تح. إحسان عباس، (بيروت: دار الثقافة، د. ت) : ٢/ ٣٧٢

(٤٥) طه، *كتابة النهاية*: ٣٤٧

(٤٦) المرجع السابق: ٣٤٧

(٤٧) أمل دنقل، *الأعمال الكاملة*، ط٢، (القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٢)، ٣٦٥

أم أن الذي كان طفلًا سواي؟
هذه الصور العائلية...
كان أبي جالسًا، وأنا واقفٌ تتدلَّى يداي
رفسةٌ من فرسْ
تركت في جبينيَ شجًّا .. وعلَّمت القلب أن يحترسْ

إن افتتاح آخر قصائده بمرحلة الطفولة عودة صارخة إلى الماضي الراسخ في أعماق النفس، وحنين إلى ذلك العهد بمكوناته وعناصره وأهله، ومن الملاحظ أنها عودة إلى طفولة حزينة باكية؛ حيث انهمرت الذكريات الحزينة مع ذكرى الطفولة وأحداثها القاسية، فكان استدعاء زمن الطفولة استدعاءً لذكرياته وآلامه التي ارتبطت به، يقول:

أتذكَّر .. سال دمي
أتذكَّر .. مات أبي نازفا
أتذكَّر .. هذا الطريق إلى قبرهِ
أتذكَّر .. أختي الصغيرة ذات الربيعين
لا أتذكَّر حتى الطريق إلى قبرها المنطمسْ

فهي عودة إلى ماض قاس مليء بالألم والمعاناة، بقيت منه في ذاكرة الشاعر صور حية يرسمها الفراق، وكأن الشاعر بهذه الافتتاحية يفسر موقفه من الموت، وعدم الجزع منه؛ فهو خصم قديم اعتاد على مواجهته، واطمأن على سيرورة القدر في ذلك، فهي مواجهة محسومة نهايتها الرحيل، واللحاق بمن سبق من الأهل والأحبة.

وتتضمن شدة الحنين مقارنة بين ملامح الماضي والحاضر، مفضية إلى غربة روحية تغشى النفس، وتسيطر على المشاعر، حتى (تصل) إلى مرحلة أشبه بإنكار الذات والتمرد عليها:

أوَكان الصبيُّ الصغيرُ أنا؟
أم تُرى كان غيري؟
أصدِّق.. لكن تلك الملامح ذات العذوبة
لا تنتمي الآن لي
.. صرتُ عني غريبا

ولم يكن عهد الطفولة والصبا وما بعده من مراحل عمرية يمثل الألم والمعاناة دائمًا، فاللحظات الجميلة التي نصنعها في مراحلنا الأولى، والأصدقاء الذين نقضي العمر بقربهم قد يكونون هم مصدر الأنس والطمأنينة التي نلجأ إليها في مراحل العمر الأخيرة، حتى إن غاب أولئك الأصدقاء، أو انقضت تلك الأيام دون رجعة حقيقية، إلا أنها قادرة على الرجوع من أعماق النفس:

ولم يتبقَّ من السنوات الغريبة
إلا صدى اسمي
وأسماء من أتذكرهم فجأةً
بين أعمدة النعيّ
أولئك الغامضون: رفاق صباي
يُقبلون من الصمتِ وجهًا فوجها
فيجتمع الشمل كل صباح ..
لكي نأتنسْ

ويظهر من ذلك أن النوستالجيا تسعى في أحد وظائفها إلى استدعاء الذات من خلال استدعاء الماضي بمراحله وشخصياته؛ فهي تفسر الحاضر بالماضي وتبني عليه، وتعيد عمارته، وتربط النهايات بالبدايات؛ لبناء صورة أكثر شمولية ووضوح.

إن الإحساس بمضي العمر وتقادم العهد وتصرّم الأيام، أحد مظاهر النوستالجيا، ويظهر هذا المعنى في كثير من مراثي الذات، ولعل قصيدة القصيبي الأخيرة (حديقة الغروب) تُجسد إحساسه بالعمر، وهو إحساس ممتد في تجربته الشعرية بشكل عام، وهو يصرح بهذا الشعور في قوله: "إن الحنين إلى عالم طفولي بريء بعيد عن المطامع والمطامح والأهواء أصبح يُشكل جزءًا هامًا من الشعر الذي كتبته خلال تلك

الفترة"[٤٨]؛ ولذلك فإن هذا الإحساس أصبح باعثًا شعريًا في تجربة القصيبي[٤٩]، وهو ما أكّد عليه في سيرته الشعرية، وأنه هاجس مستمر معه طول عمره.

ويبدو أنه هاجس لم ينفك عنه حتى في قصائده الأخيرة؛ حيث يطل العمر الماضي في افتتاح (حديقة الغروب)؛ مؤكدًا سيطرة النوستالجيا على ذهنه كما ذكر سابقًا، يقول[٥٠]:

خمسٌ وستونَ في أجفانِ إعصارِ أما سئمتَ ارتحالًا أيها السَّاري؟

إنه عمر مليءٌ بالحوادث والأحداث، غني بالتجارب والذكريات، مما جعله زمنًا جديرًا بالذكرى في أصعب اللحظات؛ تعزية وتسلية للنفس، فهي تستحق الراحة بعد هذا العناء، وكثيرًا ما يرتبط الزمن في مراثي الذات بعقد مقارنة بين الماضي والحاضر، الماضي المزهر، والحاضر الذابل، يقول القصيبي:

هذي حديقةُ عُمري في الغُروبِ كما رأيتِ مرعَى خريفٍ جائعٍ ضارِ
الطيرُ هاجرَ والأغصانُ شاحبةٌ والوردُ أطرق يبكي عهد آذارِ

وهذه المقابلة بين ما كان وما هو حاضر تُفضي إلى دلالات متعددة، إلا أنها تبرز شعوره بسرعة انقضاء الزمن، وتقلّب فصوله بين ربيع وخريف، في تناظر بين حالين، وحنين إلى تلك الحديقة في لحظات شروقها، أو أيام ربيعها، وهو في قوله (والورد أطرق يبكي عهد آذار) يحمِّل البيت كثافة حنين للماضي؛ فالعلاقة بين الورد وآذار علاقة حياة، تتمثل في أثر الربيع على الأزهار، كما أن الخريف معادل موضوعي للموت، وهو ما بدأت أماراته في الظهور على تفاصيل تلك الحديقة.

وإذا كانت حديقة الغروب من آخر قصائد القصيبي، فإنه أصدر ديوانًا أخيرًا أسماه "البراعم"، جمع فيه عددًا من القصائد التي تمثل مرحلة البداية الشعرية بين سنَّي السادسة عشر والتاسعة عشر[٥١]، وهذا ما يؤكد أثر نوستالجيا الزمن على القصيبي، وولعه بعهد الصبا، فهو يعيد ترتيب أيامه، والإحالة إلى ماضيه لكتابة السطور أو الأبيات الأخيرة في ديوان حياته.

إن حضور الزمن في القصائد الأخيرة نابع من شعور متأصل في النفس، يتغذّى على ما تمده به الذاكرة، مما تحفظه من ذكريات الطفولة والشباب، وعهود العز والكرامة، وكثيرًا ما يحضر الزمن في سياق مقارنة الحال بين ما كان وما هو كائن، على أن ذلك قد يكون غير حقيقي في جماله ورونقه، وإنما أصبح جميلًا في نفس الشاعر قياسًا على حالته الجديدة، أو قلقه واغترابه النفسي الذي جعله يرى ما كان قاسيًا أو صعبًا يظهر بصورة جميلة في نفسه، فالزمن عنصر رئيس من عناصر النوستالجيا، يمدها بطاقة متدفقة من الذكريات والأحداث والشخصيات والأماكن، ولولا الزمن لما كان لهذه العناصر تلك القيمة في استحضارها.

ثالثا: نوستالجيا الأشخاص / الأهل والأحبة:

إن العودة إلى الماضي والحنين إليه يستدعي حنينًا واستحضارًا لمكوناته الحسية والمعنوية، وهذا الحضور يتمثل في المكان وتفاصيله -كما مر بنا-، وفي الأشخاص الذين صُنعت معهم الذكريات، بل إن العودة إلى الماضي قد تكون من أجل أولئك الأشخاص الذين رُسمت صورهم في أعماق النفس وعلى جدران الذاكرة، فيحضرون بين الفينة والأخرى، حضورًا روحيًا يليق بمكانتهم.

(٤٨) غازي القصيبي، *سيرة شعرية*، ط٣، (جدة: تهامة للنشر، ١٤٢٤)، ٩٦

(٤٩) ماهر الرحيلي، *الذات والقلم – دراسات نقدية في الأدب السعودي*، (بيروت: منشورات ضفاف، ٢٠١٨)، ٣٠٦

(٥٠) القصيبي، *حديقة الغروب*: ١٣

(٥١) أحمد الحمادة، "*غازي القصيبي وديوان البراعم*"، *صحيفة الجزيرة الثقافية*، (الرياض: السعودية)، ٢٧ رمضان ١٤٢٩، https://www.al-jazirah.com/2008/20080927/cu5.htm

والمتأمل في القصائد الأخيرة يجدها تزخر بالأشخاص القادمين من الماضي، وما يبعثه حضورهم من اضطراب نفسي ظاهر عند الشعراء؛ حيث تجتمع المتضادات في الخطاب الشعري، موحية بأثر الحنين في النفس، بين فرح وحزن، ولذة وألم، ويأس وأمل، وكأن تلك الشخصيات قادرة على إعادة الماضي؛ ليعيش الشاعر في ذكرى ذلك الوصال، ويتقوى بهم على مواجهة حاضره، أو يأنس بذكرهم في وحشته.

ومن يمعن النظر في القصائد الأخيرة يجد عددًا من الشخصيات تحضر بشكل متكرر، ويُعد حضور المرأة لافتًا، على اختلاف منزلتها وعلاقتها بالشاعر (الحبيبة والابنة والأم والأخت والغريبة) حسب سياق النص والمؤثرات المحيطة به، ويلحظ أن حضور المرأة المحبوبة، والابنة، كان له النصيب الأكبر، ويظهر ذلك في قول ابن الريب:

ألا ليتَ شِعري هَل بَكَتْ أمُّ مالِكٍ كما كنتُ لو عالوا نَعِيّك باكيا

وقوله:

فمنهُنَّ أمي وابنتاي وخالتي وباكيةٌ أُخرى تَهيجُ البَواكيا

وتحضر المرأة / الحبيبة في سياق الفقد الأكبر الذي يطغى على الشاعر، وهو إحساس نفسي يجعل شدة الموت تتصاغر أمام ألم الفقد، ومن ذلك ما روي عن جعفر بن علبة وهو في أسره، بعد أن قتل رجلًا من العقيليين، فشكوه إلى الحاكم فحُبس ثم قُتل[٥٢]. يقول جعفر:

عَجِبتُ لمسراها وأنَّى تخلَّصَتْ إليَّ وبابُ السجنِ بالقفل مُغلقُ
ألَمَّتْ فحيَّتْ ثم قامت فودَّعتْ فلما تولَّتْ كادت النفسُ تزهقُ
فلا تَحسَبي أنِّي تخشَّعتُ بَعدَكُم لشيءٍ ولا أنِّي مِن الموتِ أَفرقُ
ولكنْ عَرَتنِي مِن هَواكِ صَبابةٌ كما كنتُ ألقى منكِ إذ أنا مُطلقُ
فأمَّا الهَوى والودُّ مِنِّي فطامِحٌ إليكِ وجُثماني بمكةَ مُوثقُ

تجسد الحنين هنا بصورة محبوبته؛ حيث استطاع طيفها أن يصل إليه مقتحمًا الأسوار والأقفال والحراس، وهو اقتحام لخياله وذاكرته المنشغلة بما هو عليه من حاله في السجن، إلا أن طيفها استطاع الخلوص إليه، فأصبحت محبوبته شغله الشاغل في ذلك الوقت الصعب، وهو يحاول الاحتفاظ برباطة جأشه أمام الموت، وذلك بإقناع نفسه أنه لا يخشى الموت بقدر خشيته من فراق محبوبته، وهو الأمر الذي حاول إثباته في لحظات قتله عندما ظلَّ محتفظًا بعزة نفسه وأنفته، فيُذكر أنه قبل موته وهو يسير إلى موضع قتله انقطع شسع نعله، فوقف وأصلحه، فقيل له: أما يشغلك عن هذا ما أنت فيه؟ فقال[٥٣]:

أشدُّ قبالَ نعلي أن يراني عدوِّيَ للحوادثِ مُستكينا

تلك الشخصية المعتزة بنفسها لم تخضع لهول الموقف حين مواجهة الموت، لكنها خضعت للحنين الذي خالط نفسه، ليجعل لحظات الموت هيّنة في نظره مقابل خسارة محبوبته، وهو ملمح نفسي يؤكد انخراط الشاعر في لحظته الشعورية، وتماهيه مع روح أخرى في عالم متخيل يمده بالقوة والصمود.

وقد تفضي النوستالجيا بالمحب إلى الغربة الروحية التي تكون سببًا في ولوعه بالماضي، والندم على ما فرَّط وأضاع فيه، مما قد يوصله إلى اعتلالات روحية وجسدية تؤدي إلى الموت[٥٤]، وفي هذا السياق يبرز ابن زريق البغدادي في قصيدته العينية التي نظمها في ابنة عمه التي ارتحل عنها من بغداد إلى الأندلس، ولم ينل حظه المرتجى من تلك الرحلة الشاقة، فعاوده الحنين إليها، ولم يلبث أن اغتم ومات[٥٥]، تاركًا خلفه

(٥٢) أبو الفرج الأصفهاني، *الأغاني*، تح. علي السباعي وعبدالكريم العزباوي، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤)، ١٣/ ٣١

(٥٣) الأصفهاني، *الأغاني*: ١٣/ ٣١

(٥٤) سعدي، *النوستالجيا*، موقع منشور.

(٥٥) شاكر البتلوني، *نفح الأزهار في منتخبات الأشعار*، تح. إبراهيم اليازجي، (بيروت: المطبعة الأدبية، ١٨٨٦)، ٥

قصيدة تعد من أبرز ما كتب في الحنين والشوق إلى الحبيبة، يقول ابن زريق فيها[٥٦]:

أستودعُ اللهَ في بغدادَ لي قمرًا بالكرخِ من فلكِ الأزرارِ مطلعُهُ
ودَّعتُهُ وبودِّي لو يُودِّعني صفوُ الحياةِ وأني لا أُودِّعُهُ
وكم تشفَّعَ بي أن لا أفارِقَهُ وللضروراتِ حالٌ لا تُشفِّعُهُ
وكم تشبَّثَ بي يومَ الرحيلِ ضُحى وأدمُعي مُستهلاتٌ وأدمعُهُ

تتشكل صورة الحنين منذ استعار لفظة (القمر) لوصف محبوبته، وهو ما يشي بحضورها الدائم معه في رحلته، لا سيما الحضور الليلي، حين يفرغ من شغله إلى ذاته وذكرياته وحنينه، وهو ما يؤكده بقوله:

يا مَن أُقطِّعُ أيامي وأُنفدُها حُزنًا عليهِ وليلي لستُ أهجعُهُ
لا يَطمئِنُ بجنبي مَضجَعٌ وكذا لا يطمئنُ بِهِ مُذ بنتُ مَضجعُهُ

هذا الحنين يتغذى على ذكرى الفراق ولحظاته الصعبة التي صورها مشهد الفراق، مما يشحن الحنين بعاطفة حزن وألم تزداد شيئًا فشيئًا كلما ازدادت تفاصيل المشهد، وكلما تذكر تفاصيل الحياة التي آل إليها.

وتظهر شدة اللوعة أيضًا حين يؤكد الشاعر على أن هذا الشعور وهذه المعاناة متبادلة بينهما، فكل ما يشعر به فإنها تقاسيه أيضًا، مضفيًا بذلك مسحة حزن أخرى بأن يكون سببًا في حزنها ومعاناتها، يقول في بعض أبياته على اختلاف ترتيبها في القصيدة:

وكم تشبَّثَ بي يَومَ الرَّحِيلِ ضُحَىً وأدمُعي مُستَهِلاتٌ وأدمُعُهُ
لا يَطمئنُ بجنبي مَضجَعٌ وكذا لا يَطمئِنُ بِهِ مُذ بنتُ مَضجعُهُ
مَن عِندَهُ لِيَ عَهدٌ لا يَضِيعُ كما عِندي له عهدُ صِدقٍ لا أضيّعُهُ
ومَن يُصدِّعُ قَلبي ذِكرُهُ وإذا جَرَى على قَلبِهِ ذِكرِي يُصدِّعُهُ

فيحاول إيقاد الحنين ليكون أكثر اشتعالًا في النفس من خلال استحضار هذا التماهي بينه وبين محبوبته، فكل ما يشعر به من آلام الفراق هي أيضًا تشعر به، وهو شعور نابع من حالته النفسية وما يعتريها من معاناة واغتراب، اعترافًا منه بجنايته عليها عندما قرر الرحيل عنها، فحاول العودة إليها من خلال الرحلة عبر الزمن النفسي.

وفي مواضع أخرى من القصائد الأخيرة تحضر المرأة / الابنة في حنين الشعراء، وعادة ما يكون حضورها في صورة استشراف للمستقبل، وخوف الشاعر مما قد يحل بابنته بعد موته، ومن ذلك قول لبيد بن ربيعة في مرثيه[٥٧]:

وحَذِرتُ بَعدَ الموتِ يَو مَ تَشِينُ أسماءُ الجَبِينا

فهو يتصور حال ابنته بعد موته وقد شوَّهت وجهها وجبينها حزنًا على فراق أبيها، موظفًا الاستباق الزمني لاستشراف المستقبل، فينظر للمستقبل من خلال الماضي الذي يشي بحب ابنته له، وحنينه إليها بعد ذلك.

إن الحنين إلى الأبناء في القصائد الأخيرة ينبع من غريزة الأبوَّة والخوف على الأبناء؛ حيث يمثل الأب مصدر الأمان والحماية لأبنائه، وهذا هو الباعث لاستذكار حالهم بعد الموت، وفي ذلك يقول تميم بن جميل عندما همَّ المعتصم بقتله[٥٨]:

وما جَزَعِي مِن أن أَموتَ وإنَّني لأعلمُ أنَّ الموتَ شيءٌ مؤقَّتُ
ولكنَّ خلفي صِبيةٌ قد تَركتُهم وأكبادُهم مِن حَسرةٍ تَتفتَّتُ
كأنِّي أراهُم حِينَ أُنعَى إليهِمُ وقد خَمَّشُوا تِلكَ الوجوه وصَوَّتوا
فإنْ عِشتُ عاشوا خافِضين بغِبطةٍ أذودُ الرَّدى عنهم وإن مِتُّ مَوَّتوا

حنين ممتلئ بالرحمة والشفقة على حال أبنائه بعد موت مصدر أمنهم وحياتهم، وفي الحقيقة أن الأبناء في ذلك الموقف النفسي كانوا مصدر الحياة لأبيهم؛ حيث تشكل الحنين في صورة ضمنية تنبئ عن تشبثه بالحياة، والاعتذار إلى المعتصم

(٥٦) المرجع السابق: ٦

(٥٧) لبيد بن ربيعة، *ديوان لبيد بن ربيعة – شرح الطوسي*، تح. حنا نصر، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٣)، ٢٦٤

(٥٨) ابن عبد ربه الأندلسي، *العقد الفريد*، تح. مفيد قميحة، (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت)، ٢/ ٣٣

متوسلًا بهؤلاء الصبية، الأمر الذي دعا المعتصم للعفو عنه قائلًا: "اذهب، فقد غفرتُ لك الصبوة، وتركتك للصبية"[٥٩].

رابعا: نوستالجيا المجد والبطولة:

يتضمن الحنين إلى الماضي حنينًا إلى أيام المجد والبطولة التي حققها الشعراء، أو حنينًا إلى القيم التي كانوا عليها في مجتمعاتهم، ويُمكن أن يُدرج هذا الحنين ضمن النوستالجيا الثقافية، والذكريات التي يشترك فيها أفراد المجتمع[٦٠].

والمتأمل في نوستالجيا المجد والبطولة يجدها تصور الذات، فهو حنين إلى الذات في أبهى صورها، ينطلق منها الشاعر مفتخرًا بذاته، وبالماضي الذي شكَّل هويته وشخصيته، وكأنه يخلد مسيرته، ويكتب موجز سيرته من خلال استعراض أبرز المواقف، أو القيم التي تحلَّى بها، ومن جانب آخر تأتي هذه الذكرى بمثابة تأبين ذاتي من الشاعر؛ حيث يسرد بطولاته، ويعدد صفاته ومكارم أخلاقه، وهو ملمح بارز في مراثي الذات قديمًا وحديثًا.

ولعل من أبرز النماذج التي يمكن ذكرها في هذا الباب مرثية طرفة بن العبد، التي قالها وهو في سجنه قبل مقتله، والقصيدة مُختلفٌ في صحة نسبة بعض أبياتها، إلا أنها لم تُنكر بعامة، وعلَّق الجاحظ على براعة طرفة وعبد يغوث في رثاء الذات بقوله: "ليس في الأرض أعجب من طرفة بن العبد وعبد يغوث؛ وذلك أنَّا إذا قسنا جودة أشعارهما في وقت إحاطة الموت بهما لم تكن دون سائر أشعارهما في حال الأمن والرفاهية"[٦١]، يقول طرفة في مطلعها[٦٢]:

ألا اعترليني اليوم خولة أو غُضّي فقد نزلتْ حدباءُ مُحكمةُ العَضِّ

وهي قصيدة تكاد تكون جميعها في ذكر البطولة، وتعداد المبادي والقيم التي يتمتع بها طرفة، أو يدعو إليها، ومن ذلك قوله:

وقد كنتُ جَلدًا في الحياةِ مُرزَّءًا وقد كنتُ لبَّاسَ الرِّجالِ على البُغضِ
وإنِّي لحلوٌ للخَليلِ وإنَّني لمُرٌّ لذي الأضغانِ أُبدي لهُ بُغضِي
وأَقضِي على نَفسِي إذا الحقُّ نابَني وفي النَّاسِ مَن يُقضَى عليه ولا يَقضِي
وإنِّي لذو حِلمٍ على أنَّ سَورَتي إذا هزَّني قَومٌ حَميتُ بِها عِرضي

والقصيدة مليئة بسرد الخصال الحميدة الدالة على الشجاعة والعزة والكرامة، يستعيدها الشاعر في أيامه الأخيرة مؤكدًا بسالته وحميَّته، للدلالة على مكانته وفضله؛ ورغبة في ترسيخ صورة البطولة، وكتابة الأبيات الأخيرة من سيرته ومسيرته، ولعل عمره القصير، وقلة تجاربه مقارنة بغيره من الشعراء الذين طالت أعمارهم، وكثرت تجاربهم؛ كان سببًا في سرد كثير من صفاته وشمائله؛ ليستدرك بشعره ما لم يُتحه له زمنه، ويبقى في عداد الشعراء الذين غادروا الحياة بصورة البطولة والفروسية.

وتظهر صورة البطل في القصائد الأخيرة بطرائق مختلفة قصدها الشعراء؛ فقد تكون البطولة ممزوجة بالتعريض بالعدو، وذكره بما يكره، وكثيرًا ما يرد هذا التعريض في قصائد الأسرى الذين لا يرجون خلاصًا من القتل، فيحملهم ذلك على الفخر بأنفسهم وهجاء عدوهم، ومن ذلك قول عبد يغوث:

وتضحكُ مِنِّي شَيخَةٌ عَبشَمِيةٌ كأنْ لَم تَرَي قَبلي أسيرًا يَمانِيا
وظلَّ نِساءُ الحيِّ حَوليَ رُكَّدًا يُراوِدنَ مِنِّي ما تُريدُ نِسائِيا
وقدْ عَلِمَتْ عرسي مُليكةُ أنَّني أنا الليثُ مَعدوًا عليهِ وَعَادِيا

(٥٩) ابن عبد ربه، *العقد الفريد*: ٢/ ٣٣

(٦٠) إحسان جابري ونسيمة زمالي، *"نوستالجيا الوطن في قصيدة (غريب على الخليج) لبدر شاكر السياب"*، *مجلة دراسات*، جامعة طاهري محمد بشار، الجزائر، ١، ١٢(٢٠٢٣)، ٩٣٥

(٦١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، *البيان والتبيين*، تح. عبدالسلام هارون، (بيروت: دار الجيل، د. ت)، ٢/ ٢٦٨

(٦٢) طرفة بن العبد، *ديوان طرفة بن العبد*، (القاهرة: دار الفكر العربي، د. ت)، ١٩٧

إن الثبات في ساعة الشدة، وعدم الجزع والخضوع؛ من سمات الشجاعة والبطولة التي يتغنى بها، ويزداد أثرها ووقعها عندما يواجه الشجاعُ قومًا في ديارهم، وبين أغلالهم، فيقف شامخًا معلنًا التحدي؛ وكأنهم يتمثلون ببيت المتنبي(٦٣):

وإذا لم يَكُنْ مِن الموتِ بُدٌّ فمِن العَجزِ أنْ تكونَ جَبَانا

وتأتي البطولة بشكل مغاير عند القصيبي؛ إذ ينفيها عن نفسه، ويُثبت لها الوفاء والإخلاص في حق أهله ووطنه، فيقول مخاطبًا زوجه(٦٤):

وإنْ مضيتُ فقُولِي لمْ يَكُن بَطلًا لكنَّه لمْ يُقبِّل جَبهةَ العارِ

ويخاطب ابنته:

وإنْ مضيتُ فقُولِي لمْ يَكُن بَطلًا وكانَ يَمزِجُ أطوارًا بأطوارِ

ويخاطب وطنه:

إنْ ساءَلوكِ فقُولِي لمْ أَبِعْ قَلَمي وَلمْ أُدَنِّسْ بسوقِ الزَّيفِ أفكاري

وإنْ مضيتُ فقُولِي لمْ يَكُن بَطلًا وكانَ طِفلِي وَمَحبُوبِي وَقِيثارِي

ونفي البطولة كان إثباتًا لها من وجه؛ فمن البطولة أن ينأى عما يجلب عليه العار، وأن يظلَّ أصيلًا وفيًّا متمسكًا بمبادئه تجاه أهله ووطنه، مؤكدًا بذلك على مكانتهم في نفسه، وهو في ذلك ينطلق من وعي تام بكتابة النهاية، التي عادةً ما يسطر فيها الشعراء بطولاتهم، فآثر أن تكون قصائده الأخيرة في تدوين مشاعر الحب والولاء؛ مستحضرًا الماضي، ليحيل عليه تلك الأحكام.

ولعل هذا النوع من الحنين يعود إلى رغبة الشاعر أن يكون آخر ما يُذكر به مجده وبطولته، لا سيما أولئك الشعراء الذين امتلأت حياتهم بالصراع، وساروا في تجارب مختلفة؛ بغية تجلية المعالم، ورسم صورة نقية تحفظ لهم، وتُخلِّد بها ذكراهم.

الخاتمة:

سعت الدراسة للكشف عن نوستالجيا القصائد الأخيرة وأبرز مظاهر الحنين بوصفه اضطرابًا نفسيًا يصاحب الشعراء عند مواجهة الموت والاقتراب منه، بين حنين للوطن والديار، وحنين لعهود الصبا والأيام القديمة، وحنين للأهل والأصحاب، وحنين لذكريات المجد والبطولة، وقد أسفرت الدراسة عن عدد من النتائج، من أبرزها:

- برزت نوستالجيا المكان في القصائد الأخيرة في استحضار الشعراء لمراتع الطفولة، ذاكرة الإنسان الأولى، وما تمثله من عودة إلى الذات في صفائها وحريتها وسكينتها، وهي عودة نفسية تتمرد على الواقع من خلال استدعاء المكان الآلف الذي تسكن إليه النفس، أو المكان المعادي الذي تقاومه، فالعودة إلى الحسية استحضارٌ لقيمة المكان المعنوية في نفس الشاعر، وما يبعثه من شعور بالحرية والدفء والسكينة.
- تشكلت نوستالجيا الزمان في استحضار الشعراء للماضي، واستدعاء ذكرياته وآلامه وأحلامه، من خلال العودة إلى عهود الطفولة والصبا والأيام القديمة، واللجوء إلى زمن حقيقي أو متخيل يضفي على النفس سمة الهدوء والاستقرار، وهو ما يشير إلى إحساس الشعراء بالزمن بدايةً ونهايةً في قصائدهم الأخيرة.
- يظهر في استدعاء الماضي محاولة خرق الزمن الحاضر والتمرد على ما يكابده الشاعر في لحظاته الأخيرة، ساعيًا إلى مقاومة الموت من خلال العودة إلى زمن البداية، طلبًا للخلود المستحيل؛ لتكون النهاية بداية جديدة يلجأ إليها، ويعيد النفس إلى مبتداها.
- تضمنت نوستالجيا الأشخاص حضورًا بارزًا للمرأة، لا سيما استدعاء الحبيبة ومخاطبتها، واستدعاء صورة

(٦٣) أبو الطيب المتنبي، *الديوان - ديوان أبي الطيب المتنبي وأخباره*، تح. إبراهيم البطشان، (الرياض: مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية، ٢٠٢٣)، ٦١٣

(٦٤) القصيبي، *حديقة الغروب*: ١٥

الابنة والخوف على مصيرها، كما حضر طيف الأصدقاء في حنين الشعراء والاستئناس بذكرياتهم وأيامهم القديمة.

- تمحورت نوستالجيا المجد والبطولة حول استحضار الشعراء لأمجادهم وبطولاتهم، واستعراض القيم والمبادئ التي اتصفوا بها؛ رغبة منهم في تخليد ذكراهم بكريم الخصال، والتفاخر بالثبات وعدم الخنوع من مواجهة الموت.
- برزت ملامح فنية عدة في نوستالجيا القصائد الأخيرة؛ حيث تشكَّل الحنين عند بعض الشعراء في توظيف الأسطورة، وربطها ببعض الرموز التي تحيل إلى رؤية الشاعر وفلسفته حول الموت، كما يظهر في قصائد بدر السياب وأمل دنقل.

وبعد، فإن دراسة الأدب في ضوء التحليل النفسي، وربط الموقف الأدبي بالحالة الشعورية والنفسية تفتح أمام الباحثين آفاق التأويل؛ لاستبطان خبايا النفس وأثرها في تشكيل النص الأدبي -شكلًا ومضمونًا-؛ ومن هنا يوصي الباحث بدراسة الظواهر النفسية وتجلياتها في صناعة النص الأدبي، كما يوصي بدراسة الرمز والأسطورة وأثرها في مراثي الذات، وبيان ما تحمله من دلالات نفسية ورؤى فلسفية عند الشعراء.

المصادر والمراجع:

أولا: المصادر:

الأسدي، بشر، *ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي*، تح. عزة حسن، دمشق: مديرية إحياء التراث القديم، ١٩٦٠م.

البتلوني، شاكر، *نفح الأزهار في منتخبات الأشعار*، تح. إبراهيم اليازجي، بيروت: المطبعة الأدبية، د. ت.

دنقل، أمل، *الأعمال الكاملة*، ط٢، القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٢م.

ابن الريب، *مالك،" ديوان مالك بن الريب -حياته وشعره"* ، تح. نوري القيسي، *مجلة معهد المخطوطات العربية*، ١٥، ١، (د. ت): ٥٣-١١٤

ابن ربيعة، لبيد، *ديوان لبيد بن ربيعة – شرح الطوسي*، تح. حنا نصر، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٣م.

السياب، بدر، *ديوان بدر شاكر السياب*، بيروت: دار العودة، ٢٠١٦م.

الشنتمري، ابن بسام، *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة*، تح. إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، د. ت.

الضبي، المفضل، *المفضليات*، ط٦، تح. أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، القاهرة: دار المعارف، د. ت.

ابن عباد، المعتمد، *ديوان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية*، تح. أحمد بدوي وحامد عبدالمجيد، القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٥١م.

ابن العبد، طرفة، *ديوان طرفة بن العبد*، القاهرة: دار الفكر العربي، د. ت.

القصيبي، غازي، *حديقة الغروب*، ط١، الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٧م.

ثانيا: المراجع:

إسماعيل، عز الدين، *التفسير النفسي للأدب*، ط٤، القاهرة: دار غريب للطباعة، د. ت.

الأصفهاني، أبو الفرج، *الأغاني*، تح. علي السباعي وعبدالكريم العزباوي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.

الأطرش، رابح، *"مفهوم الزمن في الفكر والفلسفة"* ، *مجلة المعيار*، ١٣، (د. ت): ١٤٠-١٦٩

أكسفورد، *"قاموس أكسفورد الإنجليزي Oxford English Dictionary"*، تم الوصول في ٣ سبتمبر ٢٠٢٤م، https://www.oed.com/?tl=true

الأندلسي، ابن عبد ربه، *العقد الفريد*، تح. مفيد قميحة، بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت.

باختين، ميخائيل، *أشكال الزمان والمكان في الرواية*، ت: يوسف حلاق، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٠م.

باشلار، غاستون، *جماليات المكان*، ط٢، ت: غالب هلسا، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٤م.

البغدادي، عبدالقادر، *خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب*، تح. عبدالسلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، د. ت.

توفيق، إميل، *الزمن بين العلم والفلسفة والأدب*، القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٢م.

جابري، إحسان، وآخرون، "*نوستالجيا الوطن في قصيدة (غريب على الخليج) لبدر شاكر السياب*"، *مجلة دراسات*، جامعة طاهري محمد بشار بالجزائر، ١، ١٢، (٢٠٢٣): ٩٣٢-٩٤٥

الجاحظ، عمرو بن بحر، *البيان والتبيين*، تح. عبدالسلام هارون، بيروت: دار الجيل، د. ت.

الجيار، مدحت، *جماليات المكان في مسرح صلاح عبدالصبور*، في كتاب جماليات المكان، ط٢، أحمد طاهر حسنين، وآخرون، الدار البيضاء: عيون المقالات، ١٩٨٨م.

الحمادة، أحمد، "*غازي القصيبي وديوان البراعم*"، *صحيفة الجزيرة الثقافية*، (الرياض: السعودية)، ٢٧ رمضان ١٤٢٩هـ، https://www.al-jazirah.com/2008/20080927/cu5.htm

آل خليفة، لولوة، "*القصيبي وحديقة الغروب*"، *صحيفة الأيام*، (المنامة: البحرين)، ٢٩ أبريل ٢٠٢٤م، https://alay.am/p/83wo

الدينوري، ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، تح. أحمد شاكر، القاهرة: دار المعارف، د. ت.

رحيم، مقداد، *رثاء النفس في الشعر الأندلسي*، الأردن: جهينة للنشر والتوزيع، ٢٠١٢م.

الرحيلي، ماهر، *الذات والقلم – دراسات نقدية في الأدب السعودي*، بيروت: منشورات ضفاف، ٢٠١٨م.

سعد الله، مكي، "*النوستالجيا الأندلسية: مقاربة في حضريات المصطلح وتمظهرات الأنا في مرآة ماضيها*"، *مجلة تبين للدراسات الفكرية*، ٤٨، ١٢، (٢٠٢٤): ٨١-١٠٨

سعدي، إسلام، "*النوستالجيا المصطلح الطبي الذي انتهى إلى حالة شاعرية*"، *موقع منشور*، ١٤ أغسطس ٢٠١٨م ، https://manshoor.com/society/nostalgia-illness-and-meaning/

الشربيني، لطفي، *معجم مصطلحات الطب النفسي*، الكويت: مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، د. ت.

آل الشيخ، عبدالملك، "*النوستالجيا الشعرية بين الأنا والآخر في ديوان (هذه الأنثى وطن) لأسماء الجنوبي*"، *مجلة كلية دار العلوم جامعة الفيوم*، ٥٥، (٢٠١٩): ٩-٦٢

صليبا، جميل، *المعجم الفلسفي*، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢م.

طه، أحمد، "*كتابة النهاية – رثاء النفس في الشعر العربي المعاصر*"، *مجلة فصول*، ٨٧-٨٨ ، (شتاء ٢٠١٤): ٣٣٥-٣٥٠

عباس، إحسان، *بدر شاكر السياب – دراسة في حياته وشعره*، ط٢، بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٢م.

عباس، فيصل، *التحليل النفسي والاتجاهات الفرويدية*، بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٩٦م.

العنزي، العنود، *المفارقة في شعر رثاء النفس بين القديم والحديث لنماذج شعرية مختارة*، الشارقة: ملامح للنشر والتوزيع، ٢٠٢٤م.

ابن عياد، محمد، "*الزمن والشعر*"، *مجلة علامات*، ١٧ ، (٢٠٠٢): ٤٠-٤٩

غاليانو، إدواردو، "*السلطة كالكمان -أخذ باليسرى وعزف باليمنى-*"، ت: محمد العشيري، *مجلة الكرمل*، ١٥، (١٩٨٥): ٢٤٦-٢٦٩

قاسم، سيزا، *بناء الرواية – دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ*، القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤م.

القصيبي، غازي، *سيرة شعرية*، ط٣، جدة: تهامة للنشر، ١٤٢٤هـ.

لوتمان، يوري، *مشكلة المكان الفني*، ترجمة: سيزا قاسم، ضمن كتاب جماليات المكان، أحمد طاهر حسنين، وآخرون، ط٢، الدار البيضاء: عيون المقالات، ١٩٨٨م.

المتنبي، أحمد بن الحسين، *الديوان - ديوان أبي الطيب المتنبي وأخباره*، تح. إبراهيم البطشان، الرياض: مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية، ٢٠٢٣م.

مصطفى، هبة، وآخرون، "*ملامح النوستالجيا في شعر أسامة بن منقذ*"، *مجلة جامعة تبوك للعلوم الإنسانية والاجتماعية*، ١، ٤، (٢٠٢٤): ٥٦٤-٥٨١

الملوحي، عبدالمعين، *الشعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت*، بيروت: دار الحضارة الجديدة، د. ت.

المودن، حسن، *الأدب والتحليل النفسي*، قطر: كتاب الدوحة، وزارة الثقافة والرياضة، د. ت.

النملة، عبدالرحمن، "*نوستالجيا*"، *مجلة فكر*، ٣٠، (٢٠٢٠): ٢٦-٢٧